المقتطف

الجزء الاول من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ يناير سنة ١٩٤٩ — ١ ربيع أول سنة ١٣٦٨

الروحانية وتطورها

عند البدائيين وفي المصر القديم

— ٣ —

إن تعاليم أفلاطون في النفس وعلاقتها بالبدن، قد تناثرت في خلال عدد من محاوراته، كتبت في خلال أوقات متفرقة . وفي أثناء الطور الطويل الذي مارس فيه نشاطه الفلسفي ، جرى على آرائه كثير من التغير والتحوير . ومن أجل هذا ، ومن أجل أن كثيراً مما كتب في النفس ، قد صبّ في قالب «رمزيّة» استمدت من الروايات الأسطورية التي كان غرضها أدبيّ جليّ ، أكثر منه علمي صرف ، يصعب بل يتعذر أن نلخص مذهبه ونصبّه في قالب من القضيات ، أو نحجره في عبارات محدودة المعاني جامعة التعريف .

إنّ نظرة أفلاطون في النفس كما صيغت مراميها في محاوراته الأولى ، كانت جزءاً من نظرة له في «الوجوديّة» Ontological ، كان للاخلاق فيها الأثر الرئيس . فأول شيء تأنسه من ذلك أنه فرّق بين عالمين : عالم المجهول وهو الوجود الحقيقي الذي يتألف من أفكار لا زمانية ثابتة ، وعالم الايجاد وإليه ينسب أشياء الادراك الحسّي ويتضمن بالضرورة جسم الانسان .

أما الأرواح فوجودات من منطقة ثالثة ، مهمتها أن تتوسط بين ذينك العالمين . أما مكانها في ذلك المذهب الوجودي ، فكان ذو صفة خاصة . فبمعنى ما تتبع الأرواح العالمين معاً ، لأنها تظل ناشطة فيهما . وللارواح علاقة بالأفكار ، ومن طريق هذه العلاقة

أو الصلة ، تأتي قدرتها على التأمل في الأفكار أو معرفتها . وهي كالأفكار لا مادية وحقيقية معاً . ولكنها بالضرورة مختلفة عن العالمين كليهما ، بحكم أنها تدركهما . وفضلاً عن ذلك فان الأرواح أكثر اختلافاً مع الأبدان ، إذ ليس في جوهرها شيء يتفق مع طبيعة الأجسام . أما نشاط الأرواح فمن ضربين : قدرتها على أن تعرف ، وقدرتها على أن تتحرك أو أن تحدث الحركة . أما القدرة العرفانية فتمارس بطريقين مختلفين : فانها بطريق التأمل المباشر في الفكرات تحصل على المعرفة الحقيقية . ومن طريق مساعدة الكفايات البدنية تحصل على إدراك أشياء العالم الخارجي . وهذان الطريقان من النشاط العرفاني يفرق بينهما في العادة بأنهما العقل والحس ، ولقد أشار إليهما أفلاطون فقال بأنهما من وظائف أجزاء الروح المختلفة . فكأنه اعتبرهما مصدراً لضربين مختلفين من المعرفة تختلف فيما كل الاختلاف ، فأحدهما مصدر للمعرفة الحقيقية ، والآخر مصدر للآراء السائحة .

وفيما يتعلق بوظيفة الروح من حيث أنها مصدر الحركة أو عنصر الحركة ، فانه ينبغي لنا أن نلحظ أنه بينما يذهب الفلاسفة السابقون لأفلاطون الى أن الروح (أو الجواهر الروحية) إنما تتحرك حركة ذاتية في الفراغ ، وانها ذات قدرة على نقل حركتها الى أشياء أخرى ، فان أفلاطون لم يعتبر الروح متحركة أو أنها في حركة ، بل إنها المصدر الذي يولد الحركة . هذا على الأقل ما يلوح للنقاد أنه رأيه في الروح . ذلك بالرغم من أن ارسطوطاليس قد نسب إليه اعتناقه للمذهب القديم ، وأخذ يفنده بطريقته المنطقية المعروفة .

هذا الموقف الوسط بين عالمي الوجود ، وهو الموقف الذي أنزلها فيه أفلاطون بين عالم الفكرات ، وعالم الأشياء المحسوسة ، لم يرض الكثيرين من شراح أفلاطون ، حتى ان بعضهم قد قال بأن أفلاطون في أوائل أمره إذ بدأ بالتفريق بين ذينك العالمين ، قد استعصى عليه بعد ذلك ان يضع تفسيراً صالحاً لمشكلة النفس يلائم مذهب الوجودية الذي اتخذه أساساً لنظريته ، وان نظرته الثانية لم تكن غير تكييف نظري لمذهبه في الروح اضطره اليه موقفه الأول ، فعادت الروح عند أفلاطون فاحتلت المقام الأول والقيمة العليا ، بعد ان كانت في أول الأمر تذييلاً لنظرة وجودية أو تفريعاً عليها .

ومهما يكن من أمر النظرية الأفلاطونية في الروح ، فان علاقة الروح بالأفكار وتعاليم

أفلاطون في أنها لا مادية صرفاً وإنها خالدة لا تفنى ، أمور واضحة كل الوضوح في كتاباته الكثيرة . فروح الانسان ، ولو أنها مستمدة بصورة ما من الروح الأكبر أو الروح الكوني ، فانها ليست ظلاً أو أثراً من آثار الطاقة الكلية أو الحياة أو العقل ، على ما صورت في فلسفة الأبوتيين من قبل . إنها موجود فردي كامل الصفات ، وإنها أساس الشخصية . على هذه الصورة تكون الروح في عالم الوجود الكلي قبل ان تتجسد . ومن ذلك العالم تستمد الروح المعرفة بالآراء من طريق التذكر . وهكذا يكون شأنها في كل ما يقع لها من تجسدات تالية .

والنفس أو الروح ، بصرف النظر عن اتصالها بهذا الجسم أو ذاك من الأجسام العضوية ، فان نشاطها نشاط عقلي صرف ، وارادتها هي إرادة الشيء الذي يفهمه العقل . ولكن إذا انفصلت عن عالمها الروحاني المحض ، واتصلت بعالم المادة حلت في جسم عضوي ، فان الروح أو النفس تمارس فضلاً عما يقتضيه الاتصال بالبدن العضوي ، بعض وظائف سفلى كالانفعالات الصارخة والشهوات الجسمانية . وهذه الصور الثلاث التي تلابس النشاط النفسي ، ترجع الى ثلاثة أجزاء تتركب منها النفس . وفي كتاب «طيماوس» : Timaeus عينت بثلاث نفوس مستقلة ، لا ثلاثة أجزاء لنفس واحدة : النفس العاقلة ومقرها الرأس أو الدماغ ، والنفس الروحانية ومقرها القلب ، والنفس الحيوانية أو الشهوانية ومقرها الأحشاء . ولكن الظاهر من عبارات أفلاطون أن هذه المعاني لا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها ، ذلك بالرغم من أن أفلاطون قد يتكلم بعض الأحيان عن الوظيفتين السفليين للروح كأنهما من خصائص نفس ثانية ، ويسمت صمتاً كلياً عن التعريف بالمدى الذي يصل اليه تلك الوظيفتين بالروح بعد ان تخلص من قيد البدن . على ان هذه الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها النفس يمكن أن تعتبر ثلاث مدارج تلابس الوظيفة العقلية ، لا مظاهر نشاط تصدر عن ثلاثة نفوس أو ثلاث كفايات . أما العليا من هذه الكفايات فهي وحدها التي يمكن أن تمارس بعيداً عن الجسم ، أي بعد الانفصال عنه .

* * *

العقل يحكم الكفايات الدنيا ، ولكنه لا ينجح في ذلك في جميع الظروف والحالات . فاذا أفلتت هذه الكفايات الدنيا من حكم العقل ، متخذة البدن مطية وطريقاً الى الاسفاف ،

فان النفس تعاني التنكس والاتضاع ، وينبغي لها حينئذ أن تتجسد ثانية في قوالب بدنية أحط من تلك التي تجسدت فيها ، وقد تكون أبدان حيوانات . من طريق هذه التجسدات المتتالية تتمكن الروح من التحرر من ربقة الحالات بالاستعلاء على الشهوات السفلية التي يجبرها البدن على الخضوع لها . فاذا تم لها ذلك عادت الى محلها الحقيقي ، عالم الوجود الأبدي الذي لا شيء فيه من متاعب هذا العالم .

لا شك في أن تعاليم أفلاطون في النفس وتقمصاتها أي تجسداتها ، قد استمدت في أكثر الأمر من المذهب الأورفي ، اللاهوتي Orphic Theology . ولقد رفعت تعاليمه تلك العقيدة الدينية وأضفت عليها من جلال الفلسفة ، فكسب أنصاراً وزادت انتشاراً . والحقيقة ان مذهب أفلاطون في النفس آخر ما تطورت فيه فلسفة الروحانية في العالم الاغريقي ، ولو انها استمدت أصلاً من مبادىء شاعت في مذهبين لاهوتيين : هما المذهب الأورفي والمذهب الديونيسي . فان أفلاطون استطاع أن يخلص الفكرة في النفس من تلك الازدواجية المادية التي شاعت في العقائد البدائية التي كانت ما زالت حتى عصره شائعة في المذهب الأورفي ، ومن طريق اصراره على التفرقة بين النفس والجسد ، استطاع لأول مرة في تاريخ الفكر ، أن يصور مذهب الازدواجية النفسيطبيعية ، ويوثق له بفكرة التبادل التأثيري بين النفس والبدن .

* * *

بالرغم من ذلك الصيت الضخم الذي اختص به اسم أفلاطون في عالم الفلسفة والتأمل ، فان مذهبه في الازدواجية النفسيطبيعية لم ينل كثيراً من الأنصار في خلال الأزمان التي عقبت انتشار مذهبه . بل قد لاح في بعض الأحيان كما لو أن هذا المذهب قد فقد كل تأثير له في عالم الفكر . فان الاتجاه العقلي عاد بسديد أفلاطون الى التأمل المادي الذي وضعه الفلاسفة الأيونيون . وأنت قلما تعثر على بحوث في النفس شاعت بعد أفلاطون مباشرة فأخذت الفكرة الروحانية تفقد أهميتها وقيمتها في عالم الفلسفة . فما أشبه تلك الفترة بفترات لهدها في تاريخ الفكر في خلال القرن التاسع عشر . ولكن عند ذاك ظهر المعلم الأول أرسطوطاليس ، موقف جهامة الجبار على المدخل الأعلى لعالم الفلسفة .

ا . م .